عبد الحميد في نظر الطب

بحث فزيولوجي بسيكولوجي (١)

اذا كان في مستطاع الطب اليوم ان يحكم في اخلاق مشاهير الرجال الغابرين وسائر اطوارهم بسيكولوجيًا وفزيولوجيًا بالنظر الى علائقها بحالاتهم العصبية من نفس افعالهم التي وصلت الينا من خلال التاريخ في القرون البعيدة كموسى وعيسى ومحمد من الانبياء والاسكندر ونابليون من الفاتحين وتيمورلنك ونيرون من الجبابرة السفاحين فبالاولى ان يستطيع ذلك في الرجال الحاضرين بقطع النظر عن درس طباعهم ومراقبة حالاتهم العصبية عن قرب بل من مجرد البحث في افعالهم فقط

لا ريب في ان عبد الحميد من اشهر مشاهير هذا العصر وسيعد له التاريخ صفحة كبيرة. والشهرة لا تدل دائمًا على العظمة وكبر الصفحة ليس دائمًا دليل المجد

ان عبد الحميد بين ملوك هذا العصر يكاد يكون نادرة لا لانهُ لم يقم لهُ شبيهٌ في التاريخ الماضي او لا يوجد لهُ شبيهٌ في التاريخ الحاضر. فان جميع الملوك في الماضي البعيد كانوا مطلقي الايدي مستبدين ارادتهم قوة تشريعية وتنفيذية معًا. وملوك الصين اليوم ليس لهم سلطتهم سلطة يرضخون اليها. بل لانهُ كان سلطان مملكة شاغلة اهم بقعة في الارض بموقعها الجغرافي ذات شعوب متباينة من حيث التربية والاستعداد. فبينما هي في اقصى الهمجية في بعض الجهات اذا هي تفتقُ ارقى مزايا المدنية في بعض الجهات الاخرى. وبينما هي من اصول نشأت في حضن الحكم المقيد في بعض الاقوام اذا هي لم تعرف غير الحكم الاستبدادي في بعض الاقوام الآخرين. قال ابقراط. «ان اهل اوربا تحكمهم شرائعهم واما اهل اسيا فتحكمهم ملوك». والمملكة التي كان يحكمها عبد الحميد تمتد املاكها في هاتين القارتين. ونظرًا الى مركزها هذا المتوسط في قلب الممالك والذي هو الصلة بين الشرق الاقصى والغرب الاقصى في مرتبطة ارتباطًا شديدًا بمصالح الامم الاخرى مما يجعل امرها ذا شأن عظيم جدًا في امور تلك الامم وممالكها بحيث لا يمكن لهذه الامم ان تنصرف عن الاهتمام بها اهتمامًا كليًا حيويًا لحفظ كيانها سليمًا من الطوارئ، والامم المتمدنة على قيد شبر منها. ومع كل ذلك فعبد الحميد استطاع ان يعيش كل مدة حكمهِ سلطانًا مطلقًا دائمًا

(١) اي من حيث حالة الاعصاب وانحال العقل

على كل الشرائع الوضعية حتى الالهية نفسها وان يكن قد تذرع بهذه الاخيرة احياناً كثيرة الى تأييد حكمه ودعمه بدعائم دينية لوية

يقول جمهور الاخلاقيين اليوم ان عبد الحميد تمكن من كل ذلك لانهُ على جانب عظيم من الذكاء والدهاء حتى اجاز على رعاياهُ وسائر الامم فوز اغراضهِ وسيتبعهم في هذا القول المؤرخون ايضاً بلا ريب بل هو في نظر البعض اعظم داهية في هذا العصر ويريدون بهذا القول انهُ ذو مدارك عقلية فائقة . ولا ينكر عليهِ ان لواءهُ العقلية مترابطة في مراميها متناسقة في استنباطها وانما هذا وحدهُ لا يجعلهُ في مصاف اصحاب العقول الكبيرة حقيقة الاَّ في نظار الذين يحكمون في اعمال العقل بالنظر الى جسامة الحوادث المترتبة على تدبيرهِ بقطع النظر عن ماهية الحوادث المترتبة على هذا التدبير

عبد الحميد يعتبر اليوم في قوة فهمهِ اعظم ممثل للذكاء الشرقي الفطري الذي قضت عليهِ التربية العلمية الحديثة وفي سلوكهِ اعظم ممثل للسياسة القديمة الشرقية المكتسبة من تربية الشرق الاجتماعية والتي كان آخر ممثل عظيم لها في الغرب السياسة البزماركية مع الفرق بان السياسة البزماركية لم تتذرع بتلك الاسباب المشجوبة الاَّ للتوصل الى النتائج الحميدة في مصالح المملكة العامة . واما سياسة عبد الحميد فواحدة في التناسب بين اسبابها القريبة ونتائجها البعيدة غير قاصد فيها الاَّ مصلحة نفسهِ الخاصة

عبد الحميد ورث عن اجدادهِ ومجتمعهِ طبائع تخالف تمام نسيج من اخلاق الجبان الحاذر والمداجي الماكر والغليظ القلب القاسي وهذه الصفات وان كانت عامة في جميع الامم الاَّ ان الشرق هو الاسبق فيها لنوع احكامهِ المطلقة كما تقدم . وهذا يؤثر في اخلاق الامم تأثيراً سيئاً افقدهُ ذل النفوس واثقله الشر بانواع الحيل ولا يزال السابق فيها حتى اليوم لفقد العلم منهُ . واكتسب من نوع تربيتهِ البيتية التي شبَّ فيها كالسجين بين جدران قصرهِ قلة ثقتهِ بغير نفسهِ وحذرهُ من كل من سواهُ واعتقادهُ الراسخ فيهِ ان مصلحتهُ لا تتفق مع مصلحة غيرهِ . وتربيتهُ العلمية لم يكن فيها شيء ينزع منهُ مثل هذا الاعتقاد ويزيل منهُ تلك الاثرة الناشئة عن تربيتهِ العرفية المتسلسلة ابًا عن جد والمحفوظة في قلوب حاشيتهِ ومهذبيهِ والمنقولة اليهِ بلسانهم من ان الملك الذي سينتقل اليهِ انما هو لهُ وحدهُ لا لله ولا للناس فلا مصلحة من ورائهِ الاَّ مصلحة نفسهِ وليس في عمله واختباره نظراً لمعيشتهِ المنقطعة عن العالم ما يرشدهُ الى ان مصلحة نفسهِ تكون اضمن واجل اذا اتت من وراء مصلحة امتهِ

والملوك الذين يتربون هذه التربية لا يستغرب منهم انهم يخالفون في سياستهم وسلوكهم مع رعاياهم المعقول والمقبول بل العجب منهم ان يسلكوا هذا السبيل السوي لمصلحة الرعايا انفسهم . ولذلك كان كل الملوك الذين تربوا هذه التربية في كل العصور وفي كل الممالك ينشأون على هذه الاثرة وهذا الترفع عن سائر الناس وقلة الاعتداد بهم الاَّ لاغراضهم . لاذمام لهم غالبًا ينكثون عهدًا ولا يحفظون ودًّا . حتى انك لترى صحة هذا القول في تربية ملوك اوربا الراقية اليوم بحسب درجة تقيدهم بامتيازاتهم او انطلاقهم منها فان فئة تلك الامتيازات لا تزال تعمل فيهم عند اقل عارض يعرض لهم كانهم في اعتقادهم من طينة فوق طينة سائر الناس ولا ريب ان ارقى الملوك اليوم علمًا واختبارًا هو ملك الانكليز الحالي لانهُ اختلط بالناس كثيرًا قبل ان تبوَّأ عرش الملك فهو اقرب الى عامة الناس منهُ الى آلهة الملوك واعرف بطبائعهم فهو اقرب الى رؤساء الجمهوريات المنتخبين من الشعب منهُ الى الملوك النازلين من تخت جوبيتر

وما عدا هذه الامور العامة فان هناك امورًا خاصة اتفقت لعبد الحميد جعلتهُ في منتهى الخوف والحذر والامتناع عن مخالطة الامة وهي تبوُّءهُ الملك بعد خلع سلطان قُتِل او انتحر وآخر جنَّ او استجنَّ وحصول كل ذلك بمساعي طائفة من اصحاب النفوذ ما زالت محيطة بهِ في اول الامر . ورأى تلك العبر فاشتدت بهِ المخاوف من كل من حولهُ ولم يعد يرى في المقرَّبين منهُ الاَّ كل يد آثمة . واشتد حذرهُ من كل شيء حتى من الهواء الذي يستنشقهُ والماء الذي يشربهُ والطعام الذي يأكلهُ . ووقع من جراء ذلك في حالة عصبية تهيجية اشبه شيء بوسواس المضطهدين فلم يكن لهُ هم سوى التفكير في وقاية نفسهِ والتخلص من كل من توهم انهُ سبب في الانقلاب السابق وان وجودهُ خطر عليهِ . وقد احسن التدبير حتى فتك باولئك المقربين متدرجًا من العزل فالابعاد فالنفي الى القتل وحتى انهُ قلب النظام الجديد الذي كانوا قد وضعوهُ واعاد النظام القديم

ولكن وسواسهُ الاضطهادي لم يقف بهِ عند هذا الحد بل استمرَّ بهِ على تزيد فلم يأمن على نفسهِ حتى من النظام القديم الذي كان معمولاً بهِ على عهد سلفائهِ والذي يجعل الحكومة في ايدي رجال مسؤولين . ولم يطمئن لهُ بال حتى جعل كل شيء في يده فقلبهُ شيئًا فشيئًا حتى صارت ادارة الاحكام كلها لهُ وصارت موارد الدولة كلها ترد الى خزينتهِ فاستخدمها لقضاء مآربهِ صونًا لحياتهِ يضدقها على هذا المقرب ويقصي بها ذلك المبعد ويتخلص من ذلك الذي اشتدَّ قلقهُ منهُ . يضرب الواحد بالآخر حتى يكون الواحد رقيبًا لهُ على

الآخر . ولم يقتصر بهِ ذلك على رجال الوظائف الادارية بل اشتدَّ بهِ الوسواس حتى لم يعد يأتمن على نفسهِ حاشيتهُ التي تقيم معهُ في قصرهِ ولا خدمهُ الذين يخدمونهُ ولا نساءهُ انفسهن فكان يستعمل معهم جميعهم نفس سياسة التفريق التي كان يستعملها بين رجال دولتهِ . ولم يكن يستنكف ان يقتص منهم بنفسهِ حتى لم يكن يفارقهُ مسدسهُ يقتل بهِ ايًّا كان منهم لحركة تصدر منهُ توقع عندهُ الريب فيهِ . وما اسرع تسرُّب الريب اليهِ وكم قتل بهِ ابرياء لمجرد الوهم فقط حتى انهُ قتل يومًا ابنتهُ الصغيرة لانها استغفلتهُ ورأت على طاولتهِ مسدسًا فاخذتهُ لتلعب بهِ شأن كل الاطفال فتوهم انها مغراة على الفتك بهِ فأودى بها وهو مع ذلك كان يحبها محبة شديدة وانما الوسواس الاضطهادي كان بهِ اشد من ذلك الحب الابوي فهو مغرًى بهِ ومدفوع الى العمل بموجبهِ بقوة تفوق كل عاطفة أُخرى

ثم اشتد بهِ هذا الوسواس حتى تجاوز بطانتهُ الى مجموع الامة كلها فاقام بعضها على بعض والقى العداء بينها بحجة الدين يستميل بذلك قومًا ويرهب آخرين ويشغل البعض بالبعض بالمجازر التي انها في اول الامر وجلاً قتلاً في الافراد ثم الفها مذابح في الجموع حتى صار الفتك بهِ طبيعة . وخاف من كل واحد من افراد الامة فجعل بعضها جواسيس على بعض . وصادف من الامة أعوانًا خونة لقضاء اغراضهِ في سبيل مخاوفهِ حتى لم يعد يأمن الواحد على نفسهِ من اهل بيتهِ أنفسهم . وهو كلما زاد ايقاعًا بالامة زاد استهواء في وسواسهِ واسترسالاً في استنباطهِ اساليب الشر الواقية وليس يبعد ان تكون الحال قد انتهت بهِ الى انهُ لم يكن يستطيع ان يفكر كيف انهُ سيمضي وفي المملكة بعدهُ دمَّار وبالخ نار لان هذا الضرب من الوسواس معهود خصوصًا في اصحاب السلطان كنيرون رومية الذي احرقها ليقوم وحدهُ متفرجًا عليها

وربما كان في اول الامر يتأثر بعض الشيء من القتل لانهُ لم يكن يقدم عليهِ بتلك العزيمة التي لم تعد بعد ذلك تعرف حذرًا ولا ندمًا والتي اشتدت بهِ في مجازر ارمينيا وكان في نيتهِ اخيرًا ان يشبك المملكة كلها بها غير مقدر العواقب فيها لولا انها نشبت بفعل التقادير قبل ان نضجت مدادتها كلها كما كان يرغب والتي لو تمت لكان بها القضاء التام على المملكة . وذلك لميلهِ هذا الى الفتك اكثر مما الى استرجاع نفوذهِ المطلق الذي فقدهُ بالنظام الجديد لان مثل هذه الحالات العصبية التي تدفع الانسان الى القتل لمجرد القتل فقط كثيرة تشاهد حتى في النساء الوديعات فيقتلن الاطفال ويتسترن وربما بكينهم بعد ذلك . ويشاهد ايضًا في الامهات انفسهن فيقتلن اولادهن ينعلن ذلك مع اتخاذ كل

الاحتياطات اللازمة ليجعلن المقدمات تنطبق على النتيجة مما يحمل على الاعتقاد بان قوانين العقلية سليمة وهي على هذا المثال من الخلل

ولا يعقل ان يكون الا يهم بعبد الحميد غير ذلك والا فلو كان الدافع له على هذا التدبير الاخير استرجاع ما فقده من النفوذ فهو لم يفقد بالحقيقة بعد الانقلاب الاول الا متاعب الملك وتوفرت له كل امتيازاته الحسنة حتى كاد الناس يتناسون مساوئه الماضية مما يحسن بكل عاقل الاستمساك به لا سيما وان هذه الطريقة لم تكن مأمونة لنيل ما يتوخاه بها من ذلك بل كل عاقل يرى بها زوال سلطته وملكه وتعريض حياته للخطر ايضاً وهو في اهماله الماضية لم يأت عملاً يكون من ورائه مثل هذا التعريض بحياته حتى انه لما رأى ان لا قبل له بالمقاومة في اوائل الانتقاض عليه سلم بكل مطالب الامة معتذراً بان الخونة هم الذين كانوا يحولون بينه وبين هذه المطالب التي كان يرغب فيها من كل قلبه . وما فعل ذلك الا حرصاً على حياته لاعتباره ان السلطة التي فقدها بذلك ليست مما يتمسك به ما دامت غايته الكبرى من سلامته متوفرة له فكيف ينكث اخيراً العهد الذي اعطاه على نفسه ويحنث باليمين التي اقسمها وسلطته لم تمس في جوهرها . فلو لم يكن حب سفك الدم هو الذي دفعه الى ذلك منقاداً اليه بتلك الهواجس ومدفوعاً اليه بذلك الميل المكتسب الذي تأصل فيه وصار من طبعه لغير غاية الأغاية سفك الدم لما اقدم على هذا التدبير وغرر بنفسه الى هذا الحد وهو غير آمن من العواقب ولا هو مضطر

فمدارك السلطان عبد الحميد كانت كل ايام حكمه منصبة لخدمة هواجسه وهي من هذا القبيل كانت محكمة ممتازة متناسبة تامة الارتباط بين المقدمات والنتائج كما في كثيرين من اصحاب الوساوس الذين ينحصر وسواسهم في موضوع واحد . وكما ان هؤلاء لا يعدون من اصحاب العقول الكبيرة فهو لا يفضلهم ايضاً وان كان قد سلم له ثلثا ملكه مدة حكمه بخسارة الثلث فقط فليس ذلك لحسن تدبيره وحصافة رأيه بل لاختلاف مصالح الدول الطامعة . واذا كانت الامة قد صبرت عليه كل هذا الزمان الطويل وهو يعيث ويخرب فليس من حسن تدبيره بل لان اختلاف اجناسها وأديانها ولغاتها وجهلها ساعده عليها

فاذا نظرنا الى الاسباب التي حفظت عبد الحميد سلطاناً على هذا الملك المتداعي الذي ارهقه كل هذا الزمان الطويل فهي من قبله اسباب سلبية فقط اذا جازنا ان نستعمل مثل هذا التعبير وما عهدنا بان ذلك من صفات العقول الايجابية . واما الاسباب الايجابية الفعلية فهي خارجية من تنافس الدول وداخلية من حالة تربية الامة الاجتماعية

هذه في حالة عبد الحيد البيكولوجية الفزيولوجية مع امته مستنتجة من افعاله مدة حكمه الطويل فما بالك بالامة التي كان هذا سلطانها المطلق مدة ثلاث وثلاثين سنة والتي لا يزال كثيرون منها اليوم يبكون حسرةً عليه! — واما ماذا يكون من امرهِ بعد اسرهِ فقد تغير اطوارهُ من الضد الى الضد ويذوق راحة من هواجسهِ لم يعرفها من قبل. اذ ليس علاج ينجع في مثل هذه الوساوس من الانتقال بصاحبها من مركز الى ضدهِ وان لم يكن بالعلاج الشافي دائمًا. اما مسؤليتهُ الحقيقية من وراء كل ذلك فمختلف فيها وفي نظرنا انهُ اذا كانت المسؤولية الادبية تجد مخففًا لها عنهُ من حالتهِ هذه فالرزايا المادية التي حلقت بالامة من جرائها تبعتها في مثل هذا المرقف تلتصق بالامة وحدها لان المال السائب يعلم الناس الحرام. وقد تحملت الامة عاقبة جهلها. واما المسؤلية الحقيقية فعلى الدول الراقية المسؤلة وحدها لدى الانسانية المخفامنة

الدكتور
شبلي شميل

نيتشه وابن الانسان[1]

اصدرت الجمعية اليوجنية (Eugenics' Society) مجلة شهرية الغرض منها نشر ما يعرف عن العلوم اليوجنية بين الشعب وحمل الحكومة على جعل قوانينها منطبقة على مبادىء هذا العلم الجديد

اليوجنية علم وضع اسمهُ المستر فرنسيس غلتون رئيس الجمعية اصولهُ مأخوذة من قوانين علم الحياة وغرضهُ منع العوامل التي تؤول الى اضعاف النسل كمنع زواج اصحاب العاهات الوراثية — وتقوية العوامل التي تؤول الى تحسين النسل كتشجيع الزواج بين اصحاء الاجسام والعقول. وهذا كلهُ مبني على قانون دارون: بقاء الاصلح والانتخاب الصناعي. ووقوف نجاح الجمعية طبعًا على ميل الامة الى تحسين نسلها وما يشاهد من رواج بيع مجلتها الجديدة يدل على قوة هذا الميل

وليس غرضي شرح الطرق التي ستتخذها الجمعية للوصول الى غايتها من تحسين النسل وانما ذكرت خبر هذه النهضة مشاهدًا على اهتمام الامة الانكليزية بنسلها وتنبيهًا للقارىء الشرقي الى مستقبل بلادهِ. وغرضي من هذه المقالة شرح فلسفة جديدة لاحد فلاسفة

[1] Nietzche's "Thus spake Zarathustra," and Ludovici's "Who is to be master of the World," and "Man and Superman" by G.B. Shaw.